محاولة في ترشيد المقاومة: مقومات الحرب النفسية الفاعلة

الرعب لا تحققه إلا المهابة الناتجة عن احترام العدو وصلاح الدين أصبح بطلا كونيا ليس بالحرب وحدها

الحرب النفسية من جنس «التوب تن» تحقق أغراض العدو أكثر مما تقود للتحرير وعدونا يريدنا مصدرا للقسوة

أبو يعرب المرزوقي*

هالني ما قرأته حول فكرة «التوب تن» في الحرب النفسية التي وجهت إلى أسر قتلى الجيش الامريكي السنة الفارطة، فبدا لي أنها من أكبر الأدلة على خلو وطاب أصحابها من كل ثقافة نفسية جماعية عامة ونفسية جماعية خاصة بالحروب. فهي تعبر عن انتهاج أفسد الطرق فتدل على سذاجة لعل سببها جهل أصحابها بعلم نفس الحروب ودور الحرب النفسية فيها رغم ما عبر عنه الكثير من اعجاب بالفكرة اعجابا يثبت بداوة الفكر وقلة الخبرة بتاريخ الحروب. لكأن أصحابها لم يقرأوا قوله تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» (التوبة 6). وكل أسير يعد في عرف الاخلاق الاسلامية الحربية جارا لانه أصبح تحت رحمة آسره بمجرد الاستسلام له. فلو عاملناه بهذا المنطق لكان أفضل داعية هو وأهله للفصل بين الشعب الامريكي والمافية التي تتحكم فيه لتستغله كما تسعى إلى التحكم فينا لاستغلالنا.

إن نوع الحرب النفسية التي من جنس «التوب تن» تحقق أغراض العدو أكثر مما تحقق أغراض حرب التحرير المؤثرة لأن النصر حتى وإن كان لا بد فيه من الرعب لا يحققه فعلا الا المهابة الناتجة عن احترام العدو لك لما يتعرف عليك عن قرب: بذلك أصبح صلاح الدين الأيوبي بطلا كونيا وليس بالحرب الدموية وحدها. وحتى لا يكون حكمي مجرد رأي شخصي قد ينسبه البعض إلى التثبيط أو إلى التقليل من شأن الاجتهاد الذي تبذله الجماعات المجاهدة للقيام بوظيفة الحرب النفسية فإني ساحتكم إلى التحليل الموضوعي لشروط النصر في الحرب عامة ولدور الحرب النفسية فيها دون أن أنسى أن النصر من عند الله.

ولما كان ذلك لا يعني التواكل بل هو يعني التوكل فإن الله يهدي القوم الذين يستخلفهم إلى شروط النصر وأسبابه بما أمدهم به من عقول ودراية. وسنؤيد هذا العلاج الموضوعي بفلسفة الحرب التي استقرأها ابن خلدون من السنن التي كانت منها الحروب الاسلامية أول تطبيق عملي وخاصة في المعارك التي قادها الرسول العظيم بهدي القرآن الكريم ومن أجل الرسالة دون تحرف لان الله بعثه هاديا لا جابيا كما قال خامس الخلفاء الراشدين تنديدا بانحراف اخلاق الحرب عند المسلمين.

هل التوب تن حرب نفسية لنا أم علينا؟

فأما العلاج الموضوعي لمقومات النصر في الحرب فهدفه الجواب عن السؤال التالي: هل يعقل أن يكون أصحاب «التوب تن= العشرة الاوائل» مدركين للعوامل التي تتدخل في الحرب النفسية حتى يركبوا هذا المركب شرطا في الحكم لهم بكونهم مخلصين للثورة ولحرب التحرير التي تخضع للأخلاق الاسلامية شرعة ومنهاجا أم هم في الحقيقة بوعي أو بغير وعي جزء من استراتيجية الحرب النفسية الامريكية لتجنيد الرأي العام الأمريكي الداخلي تجنيده الذي تحتاج إليه المافيات الامريكية في حربها على الإسلام والمسلمين فيحكم عليهم لا لهم؟

أليس أصحاب التوب تن قوما يخلطون بين الرعب الذي هو مفعول جانبي للشائعات التي يستعملها الصف المغلوب لتشويه الصف الغالب وليس شرطا موضوعيا في النصر وبين المهابة التي تتولد في نفس المغلوب للغالب والتي هي من جنس الالتباس بين الحب والكراهية الناتجة عن اعجاب المغلوب بالغالب وكرهه له بوصفه في نفس الوقت مثاله الاعلى وعدوه الالد: العدو هو الذي يريد أن يجعلنا مصدرا للرعب ونحن نريد أن نكون مصدرا للمهابة التي هي رهبة ناتجة عن تقدير. فإذا صار أحد الفرقاء ساعيا إلى التأثير بالرعب فإنه بات قاب قوسين أو ادنى من مساعدة عدوه على تحفيز قومه لنصرته ومن ثم فهو قد يحول الحرب التي كانت بين جيش غاز وشعب ضعيف مقاوم إلى حرب بين شعب قوي يثأر لما فُعل بأبناء جيشه والشعب الضعيف الثائر الذي يذهب ضحية هذا السلوك الساذج نظرا لما بين الشعبين من انخرام توازن في القوة المادية: وذلك هو عينه ما تبحث عنه المافية الحاكمة في اسرائيل وأمريكا للحصول على تأييد رأيها العام من أجل الحسم أو على الاقل المطاولة في الحرب علينا.

فإذا أنت جندت رأي العدو العام لتجعله مع الجيش الذي يغزوك بدل أن تسعى لجعله عليه فأنت من حيث لا تعلم أعطيت هذا الجيش كل ما كان يحلم به قادته من تأييد جماهيري في بلده فنقلته من موقف الاحتقار الناتج عن تعثره في المطاولة خلال قتال شعب يسعى إلى التحرر إلى موقف الجيش الذي يؤدب ذوي القلوب الفظة التي تشوي الأسارى وتعلقهم على الجسور. ذلك هو المعنى الوحيد للتوب تن وهي أكبر اعلانات الدعاية التي يحتاج إليها كلاب البنتاغون. ألست عندئذ قد مكنت القيادة السياسية الامريكية مما تسعى إليه من مؤيدات لحربها النفسية الموجهة إلى شعبها لكي تجنده. فهي لا تحتاج إلا إلى ذلك نظرا إلى أن وسائل الحسم المادية ليست ما ينقصها لولم تكن أمام هدفين متناقضين: اقناع رأيها العام بضرورة الحرب واقناع رأيك العام بأنها تسعى إلى السلم وإلا لاستعملت القوة الساحقة التي تستعمل عادة في الحروب الخالصة حيث المطلوب هو ربح الحرب المادية وليس ربح القلوب والعقول.

ما طبيعة الحرب التي نخوضها اليوم؟

لما كانت الحرب في أدنى أشكالها علاقة ثنائية لا بد فيها من طرفين كلاهما فاعل ومنفعل رغم قابلية التمييز بينهما من منظور تحديد المعتدي والمعتدى عليه، و لما كانت الحرب مؤسسة اجتماعية شاملة بمعنى المصطلح عند مارسال موس فإنها مثل كل المؤسسات قد تطورت بحسب تعقد وظائف العمران تعقيدا يمكن استئناسا بتقسيم ابن خلدون للعمران أن نبرز شكليها الحدين

1ـ الشكل الغالب على العمران البدوي

2ـ والشكل الغالب على العمران الحضري.

وإذن فقبل الشروع في تحديد مناطات العوامل النسقية التي ينبغي أن تتوجه إليها استراتيجية الحرب النفسية ينبغي أن نصنف الحروب في العمران البشري ومعرفة طبيعة الحرب التي نخوضها مع مافيات اسرائيل وأمريكا. لذلك فسنحددها من خلال التمييز بين حالتين من الحرب في التاريخ البشري:

الحالة الاولى: الحرب البدائية: تعنينا لكونها حيلة استراتيجية يلجأ إليها في حروب التحرير والحروب الشعبية.

حالة الحروب البدائية التي سبقت تقسيم العمل الوظيفي في العمران المعقد بحيث يمكن للمجتمع أن يكون الانتساب إلى حاميته المباشرة فرض عين لا فرض كفاية فلا يزدوج فيه الدفاع بل كله مباشر: كل قادر على حمل السلاح مدافع. ويمكن أن نزعم أننا ما زلنا قريبين من هذا الجانب لعلتين: أولا لتخلفنا التقني والعلمي فإن أنظمة دفاعنا البسيطة تكاد أن تكون كلها في متناول غير المختصين وثانيا لاننا اخترنا حرب المطاولة لعدم قدرتنا على المواجهة بشروط العدو وقواعده. فتكون مشكلتنا الاستراتيجية: كيف نطيل الحرب إلى أقصى حد ممكن.

وكان يمكن ألا نهتم بهذه الحالة البسيطة لو لم يكن في امكان الشعوب التي تجاوزت البداوة ـ كما هو شأن الشعب العربي عامة والشعب العراقي خاصة ـ يمكنها النكوص إليها عندما تعيدها الحرب إلى ما هو أسوأ منها كما حصل في الكثير من الحالات أو هي تلجأ إليها حيلة استراتيجية لعدم التكافؤ التقني بين الجيشين. ولعل أكثر الحالات تمثيلا لهذا النكوص ما حصل لافغانستان التي أصبحت مرتعا لامراء الحرب والاتجار في المخدرات بعد طرد السوفيات ومنذ قدوم الامريكان. كما أن افضل أمثلة هذا الاستعمال الاستراتيجي تحول أحد الجيوش طوعا إلى جيش مقاومة بالطرق الشعبية تجنبا للقتال الجبهوي كما حصل سابقا في فيتنام وكما يحصل في العراق حاليا.

كما أن المجتمعات البشرية لا تخلو من آليات الحرب البدائية مهما تحضرت لانها شرط في التنشئة الاجتماعية الدنيا فيها جميعا وخاصة بين الفتيان في الأحياء والمدارس حيث تتكون العصبيات وتتقاتل حول أهداف مختلفة كما في فرق التشجيع الرياضية أو عصابات الأحياء. وقد يكون لذلك علاقة بنفس الظاهرة في كل الانواع الحية التي يعد الصراع فيها جزءا من اللعب والتنشئة الاجتماعية بل هو جزء لا يتجزأ من فعل الحياة ذاته بدليل ارتباطه بالجنس. فكلها شبيه بمعارك اثبات الذات وخاصة خلال اختيار الانثى عند الحيوانات.

الحالة الثانية: الحروب المعقدة أو الحضارية: هذه هي الحالة التي تعنينا لتحديد مناط الحرب النفسية.

حالة الحروب الحضارية التي تلت تقسيم العمل في العمران البشري المعقد بحيث يمكن للمجتمع أن يكون ذا حامية مباشرة يعد الانتساب إليها فرض كفاية لا فرض عين فيزدوج فيه الدفاع ليصبح مباشرا وغير مباشر. ويمكن ان نزعم ان العدو بلغ ذروة هذا الجانب لعلتين كذلك: فهو أولا متقدم تقنيا وعلميا فلا يمكن أن يستعمل أنظمة دفاعه الا المختصون رفيعو الاختصاص وثانيا لأنه قد اختار حرب المناجزة لعدم قدرته على المطاولة بشروطنا وقواعدنا. وتكون مشكلة العدو الاستراتيجية: كيف يقصر الحرب إلى أقصى حد ممكن.

ومن ثم فمشكلة الفريقين الاولى هي مع الزمان كما أدرك ابن خلدون ذلك لأن الأمر هو صراع بين قوتين متناظرتين بالتعاكس إحداهما قوية مادياً وضعيفة روحيا والثانية قوية روحيا وضعيفة ماديا: فالضعيف المادي قوي روحيا (وعلامة ذلك الخصب البايولوجي) لذلك فهو يسعى لحرب المطاولة والقوي المادي ضعيف روحيا (وعلامة ذلك العقم البايولوجي) لذلك فهو يسعى لحرب المناجزة بلغة عبد الرحمن بن خلدون. ولما كان الزمان من منظور التقصير والتطويل يمثل مشكلا لعلتين لا ثالث لهما ـ تقنية هي نسبته إلى المكان لان مدته تقاس بقطعه في فعل الحرب للتمكن منه (مشكل رياضي فيزيائي) وروحية هي نسبته إلى حدة الوعي به صبرا وتحملا عند القائمين بفعل التمكن (مشكل خلقي نفسي) ـ بات حل المشكل الزماني في الحروب متعلقا بالمكان توسيعا وتضييقا وبصبر الجبهتين قبولا بالمطاولة ورفضا لها لئلا ينفرط ما بينهما من اتصال فتتضادان: والأول يعود إلى قضية مادية صرفة وأسمى أسلحته القدرة التقنية حيث يكون اللا صبر لا متناهياً لتناهي الحياة الدنيا ومن ثم للانحباس في الزمان والثاني إلى قضية روحية صرفة وأسمى أسلحته العقيدة الدينية حيث يكون الصبر لا متناهي الكبر للايمان بالحياة الأخرى التي هي خلود ومن ثم فوق الزمان.

كل الحرب النفسية ينبغي ان تتعلق بالقسم الثاني من المعادلة أي بالبعد الخلقي النفسي من الزمان: يخسر الحرب من ينفذ صبره قبل الاخر لذلك قال الرسول الكريم: النصر صبر ساعة. فيسعى كل فريق للتفريق بين جبهتي عدوه: باللعب على عامل الصبر. وكل الحرب المادية ينبغي أن تتعلق بالقسم الأول من المعادلة أي بالبعد الرياضي الفيزيائي من الزمان. فيسعى الفريق الأقوى ماديا لتضييق مكان المعركة لتقسير زمانها للحسم لكونه يعلم أنه لا طاقة له بالبعد الأول عند عدوه: لا يمكن لمن لا يؤمن باليوم الآخر ان يجاري في الصبر من يؤمن بالحياة الأخرى وتلك هي أهم الوظائف التي تؤديها الاسكاتولوجيات. ويسعى الفريق الأضعف ماديا لتوسيع مكان المعركة شرطا في اطالة مدتها للحيلولة دون الحسم لكونه يعلم أنه لا طاقة له بالبعد الثاني عند عدوه: لذلك كان أهم أغراض التكنولوجيا تسريع الفعل والمعلومة. وكان الرد بالمكان تعطيل التسريعين تسريع الفعل وتسريع المعلومة.

فإذا طمع الأضعف ماديا في غير هذه الغاية في القسم الثاني قبل الوصول إلى لحظة الحسم في القسم الأول (انهيار الجبهة غير المباشرة التي لم تعد تطيق صبرا) فإنه ينتهي إلى الخسران المبين. وإذا طمع الفريق الأقوى ماديا في غير هذه الغاية في القسم الأول قبل الوصول إلى لحظة الحسم في مسألة المكان (حصر المعركة في مكان محدود) فإنه خاسر لا محالة.

لذلك فقدم أخيل عند الأقوى ماديا هو الجبهة غير المباشرة أو رأيه العام: نغلبه إذا جعلنا رأيه العام يرفض مواصلة الحرب ولا يكون ذلك إلا بالمطاولة والفصل بين الجبهتين. لذلك فينبغي أن تركز الحرب النفسية على تحقيق هذا الفصل ومن ثم على تبريد الجبهة غير المباشرة وعدم إيصالها إلى التحمس للحرب لئلا يتحول الشعب إلى شعب يريد الانتقام لابنائه المحاربين بدل السعي إلى استعادتهم سالمين.

وقدم اخيل عند الأضعف هو الجبهة المباشرة: يغلب القوي الضعيف إذا حال دون ساحة المعركة والاتساع ولا يكون ذلك إلا بالمناجزة والفصل بين الجبهتين. ويفرض الفصل بين الجبهتين العراقيتين على الأمريكي سياسة ما يسميه ربح القلوب والعقول ومن ثم فهذه السياسية تناقض سياسة المناجزة: لذلك فهو أمام معضلة استراتيجية مستحيلة الحل فضلا عن تعذر الفصل بين الجبهتين لان العراق زالت فيه الجبهة المباشرة وأصبح كله جبهة مباشرة أو غير مباشرة لأنه عاد إلى الشكل البدائي من الحرب التي يكون فيها الدفاع فرض عين: الكل مقاتل على الأقل في ذهن العدو الذي ليس له علامة فاصلة بين المقاتل وغير المقاتل ومن ثم فهو لا يمكن أن يطمئن إلى أي عراقي حتى أكبر المتعاملين معه من الخونة. ومن الحكمة مضاعفة هذا الشعور بوعد المتعاونين وعدم الاكتفاء بالوعيد لأنهم يمكن أن يكون في عون المقاومة إذا وجدوا أملا في العفو وشعروا برجحان كفة المقاومة فيسرع ذلك النصر.

مقومات الفعل الحربي

ينبغي الآن أن نشير إلى مناطات الحرب النفسية دون أن نطيل لأن ما قلناه عن الزمان كاف وزيادة إذ هو مثال لما يمكن ان نقول في الأبعاد الأربعة الأخرى أي: المكان والسلم والدورة الخاصة والدورة العامة كما نبين. فالفعل الحربي التام الذي هو صراع ارادات على علم يتألف من صدام بين جبهتين مضاعفتين متمايزتين بالقوة أو بالفعل.

فأما الجبهة الأولى فهي جبهة غير مباشرة: إنها الصراع بين جماعتين متقابلتين قد تكونان أمتين أو بعض أمتين.

وأما الجبهة الثانية فهي مباشرة: إنها الصراع بين جيشين أو بعض جيشين.

ويجري الصراعان على أرضية المجال الجغرافي السياسي في لحظة تاريخية معينة تحدد رهانات الحرب وتتحدد بها في التاريخ البشري (أعني مجالات التقويم الخمسة مركزة في قيمة ادراك الأمم للقيمتين اللتين من القوة الثانية أعني قيمة العمل التي هي قيمة قيمة الرزق وقيمة الوجود التي هي قيمة الذوق). ولما كان المجال الجغرافي السياسي اليوم ممتدا إلى كل المعمورة فإن كل الجماعات الفاعلة فيها يمكن أن تتدخل في أي حرب فتنحاز إلى هذا أو ذلك في إحدى الواجهتين أو فيهما معا انحيازا بالفعل أو بالقوة في الراهن من الحدث أو في المقبل منه استعدادا لتقاسم الغنائم. ويمكن أن نحدد المقومات بحسب بعدي الحرب هذين. فهما يكونان مخمسين مضاعفين كما يمكن أن نستقرئ ذلك من آية الردع (الأنفال 60) التي أشارت إلى الجبهتين المتحاربتين بعطف رباط الخيل على القوة مجردة من كل وصف.

فمن الأصل الأول للردع أو القوة يصدر: مقوما الجبهة غير المباشرة البسيطان وأثر كل منهما في الآخر ووحدة الكل أعني قوة الأمة بالقوة الواردة في آية الرهبة (ما استطعتم من قوة) : 1ـ قدرات الأمة الرمزية (المعرفية والخلقية) 2ـ وقدرات الأمة المادية (التنقية والاقتصادية).

ومن الأصل الثاني يصدر: مقوما الجبهة المباشرة البسيطان وأثر كل منهما في الآخر ووحدة الكل أعني قوة الأمة بالفعل في آية الرهبة (ومن رباط الخيل): 3 ـ تصور المعركة 4ـ وانجازها.

والمقوم الأخير هو المبدأ العام الجامع بين العنصرين المخمسين المضاعفين أي عدم الغفلة عن القيم المتعالية على طرفي الصراع. وبقدر سمو هذه القيم تكون الرهبة التي هي مهابة صاحب الحصانة واعجاب أعدائه به يحققان المقصود من «ترهبون به عدو الله عدوكم» لجمعهما بين الجلال والجمال جمعا يحدد معنى الفروسية في الحرب التي يمثلها عندنا احسن تمثيل صلاح الديني الأيوبي في العصر الاسلامي وعنترة في العصر الجاهلي: 5ـ وظيفة الحرب في التاريخ البشري كما تعرفها الأخلاق الاسلامية أعني الوعي بتبعيتها للسلم.

فالحرب في الاسلام مجرد أداة لإزالة العوائق أمام التعارف بين الشعوب والقبائل على أرضية الأخوة البشرية لا لتعميق العداوة بينهم (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). والدين الإسلامي يعتبر الرسالة الخاتمة تتميما لمكارم الأخلاق ومن ثم فهي نقل الإنسانية من منطق التاريخ الطبيعي (أي الحرب الدائمة من أجل البقاء) إلى التاريخ الخلقي أي حصر الحرب في تحقيق شروط منطقه أعني السلم الدائمة من أجل التعاون والأخوة البشرية.

وقد اكتفيت باحصاء المقومات البسيطة دون المؤلفات تجنباً للاطالة. لكن لا بأس من الإشارة إليها بعجالة لنفهم مدلول جمع القرآن الكريم بين مبدأي القوة ورباط الخيل شرطا في الحصول على المهابة جلالا وجمالا يغنيان عن الحرب إلا للضرورة وفي حدود الدفاع ورد الأذى إما على الذات أو على المستضعفين في الأرض وحماية حرية العبادة: وتلك هي أهم أدوات الحرب النفسية أو معنى الاستعداد الذي يرهب به المسلمون عدو الله وعدوهم (في الله).

فأثر القدرات الرمزية في القدرات المادية مضروب ديكارتي بين عنصري الأولى وعنصري الثانية وهو مضروب مضاعف لأن العلاقة بين العنصرين علاقة ثنائية تختلف دلالتها باتجاهها. لذلك فالاتجاه الأول أي أثر القدرات العلمية في القدرات التقنية مضروب ديكارتي يعطينا الكفاءة التقنية وأثرها في القدرات الاقتصادية يعطينا النمو المستدام وأثر القدرات الخلقية في القدرات التقنية يعطينا فاعلية الاستعمال المتقن وأثرها في القدرات الاقتصادية يعطينا تحسن الانتاجية المطرد. فإذا عكسنا وجهة العلاقة أعطانا أثر القدرات المادية في القدرات الرمزية مضروباً ديكارتياً كذلك. ذلك أن أثر القدرات التقنية في القدرات العلمية هو الذي يمدنا بوسائل الإدراك والعلاج العمليين وأثرها في القدرات الخلقية الذي يعطينا الثقة بالنفس والطمأنينة للعالم وأثر القدرات الاقتصادية في القدرات العلمية هو الذي يطور البحث والمؤسسات التربوية وأثرها في القدرات الخلقية هو المصدر الرئيس للتعالي على الحاجات الأولية التي تزداد منزلتها. ولنستعمل لونين للتمييز بين الاثرين جمعا بين وجهتي العلاقة الثنائية.

فيكون الحاصل ثمانية عناصر تضاف إلى العنصرين البسيطين فيكون المجموع عشرة عناصر لا بد من اعتبارها عند تقويم قوة الأمم او الجبهة غير المباشرة في كل حرب بين أمتين قوتهما الكامنة التي هي طور الممكن الحربي القابل للتحول إلى حاصل عند النقلة من الجبهة غير المباشرة إلى الجبهة المباشرة أعني خلال جريان الحرب إذا مكنت الحرب النفسية من تحقيق ما يمكن ان نصطلح عليه بلسان عرب الجاهلية بالفزعة عند احد الفريقين وحالت دونها والفزعة عند الفريق الاخر. لكن ذلك يبقى مجرد امكان لا ينتقل إلى الحصول إذا فشلت الحرب النفسية في تحقيق شروط الفزعة الطوعية التي يشعر فيها كل امرىء بالجهاد فرض عين بالمال والأولاد وبالنفس.

لذلك فإنه بوسع المرء أن يجزم أن الحرب التحريرية العراقية لن تصبح حربا شعبية حقا إلا إذا تمكنت من تحقيق ذلك فيصبح الشعب كله منتسبا إلى العصيان المدني الذي سيزيل كل أكاذيب دعاية العدو للإبقاء على الصلة بين جبهتيه. فبمجرد أن يرى الشعب الأمريكي أن الشعب العراقي يتظاهر يوميا ويقوم بالعصيان المدني من اجل الاستقلال ستصبح كل خطط المافية الامريكية عارية وستضطر للجلاء المخزي فيكون النصر في أقرب أجل وبأقل الكلف من الدماء ومن تهديم القدرات العراقية لتفويت الفرصة على أمريكا التي تريد أن تعيد العراق إلى القرون الوسطى فيقتضي نصف قرن آخر في العودة إلى ما كان عليه قبل الحرب. ومن ثم فيمكن أن نقول إن الحرب النفسية وظيفتها تحفيز الجبهة غير المباشرة من حيث هي قوة حربية كامنة ونقلها من الإمكان إلى الحصول عند الأمة وتحقيق عكس ذلك عند العدو أو تخدير جبهته غير المباشرة بالملهيات المشتتة لصفوفه وأهمها عدم إيجاد البواعث للوحدة العاطفية التي تلغي أثر الملهيات: والعلة هي أن كل عوامل الفعل الرمزية والمادية في الحرب تؤول إلى حال الفاعل النفسية من حيث هو إرادة واعية وحرة خلال الفعل المشترك في جوق جماعي يشبه جوق السمفونية. لذلك كانت علامة تحقيق النجاح في كل حرب النجاح في الحرب النفسية المساوقة لمكونات المخمس الثاني التي نحلل الآن.

فالعنصران البسيطان هما كما أسلفنا :

1ـ تصور الحرب و

2ـ انجازها. ويحصل المخمس باضافة أثر التصور في الانجاز (تخطيط الحرب والاستعلام والاستراتيجية) وأثر الانجاز في التصور (يمكن من تحقيق أهم توقعاته أو من خيانتها) ثم وحدة الكل التي هي الفعل عندما يكون بالفعل أعني مجرى الحرب نفسه مجراها الذي يتزامن فيه التصور والانجاز لان الفعل لا يمهل الفاعل فيكون أقل الفاعلين قدرة على الفعل من لم يقدم عليه الاستعداد التصوري ومقتضيات ما توقعه بالبدائل المتصدية للحد الاسوأ. وذلك هو أهم محدد لطبيعة دور المكونات خلال المجرى الفعلي للحرب من حيث هي عمل على علم أو روية فاعلة جماعية كلما تناسقت عناصرها ازدادت حظوظ الفلاح وكلما تقدم عليها التخطيط لشروط العمل على علم بالذات وبالعدو كانت حظوظ النصر أكبر. ولعل أهم أدوات الإعداد التعمية على الذات وعلى علمك بالعدو في علم العدو.

نجد هنا أيضا مضروبين ديكارتيين آخرين كلاهما يتضاعف لطبيعة العلاقة الثنائية. فالتصور والانجاز كلاهما مضاعف في وحدة فعل الحرب من حيث هو إرادة متروية جماعية تحقق بالقوة الذكية الغلبة على إرادة متروية جماعية اخرى وكلتاهما يحكمها علم نفس الجماعة ودور الأبطال والرموز التاريخية في سندها النفسي خلال حل مشكل الزمان الخلقي النفسي الذي أشرنا إليه: التصور والإنجاز التعبويين أو الاستراتيجيين وهما تابع بالمعنى الرياضي للكلمة لأثر الجبهة غير المباشرة في الجبهة المباشرة ثم التصور والإنجاز العمليا تيين أو التكتيكيين وهما تابع بنفس المعنى لأثر الجبهة المباشرة في الجبهة غير المباشرة. وأهم مصادر الحرب النفسية تعود إلى استعمال هذين القانونين الرياضيين: فالتابع الأول هو الذي يحدد منحنى السند و المدد وهو الذي يجعل الجيش مطمئناً والتابع الثاني هو الذي يحدد المكثفات اللحظية للمعنويات التي تقوي أمل الجبهة غير المباشرة وحماسها أو تضعفه.

فإذا ضربنا التصور التعبوي في الإنجاز ببعديه حصل لنا أثر التصور التعبوي في الإنجاز التعبوي وتلك هي منظومة البدائل الامدادية التي يتوقعها الاستراتيجي وأثره في الإنجاز العملياتي يتعلق بمنظومة البدائل التكتيكية المناسبة لمراحل الحرب ومفاجآتها. وضرب التصور العملياتي في الإنجاز التعبوي هو الذي يحدد لقائد المعركة هامش المناورة التعبوية التي يتصرف فيها وضرب التصور العملياتي في الإنجاز العملياتي هو الذي يحدد له هامش المناورة العملياتية. فإذا عكسنا كان ضرب الإنجاز الاستراتيجي في التصور الاستراتيجي العائد الاستراتيجي الفعلي وضرب الإنجاز الاستراتيجي في التصور التكتيكي هامش المناورة المددية وضرب الانجاز التكتيكي في التصور الاستراتيجي هو العائد التكتيكي وضرب الانجاز التكتيكي في التصور التكتيكي هو هامش المناورة التكتيكية.

مناطات فعل الحرب النفسية:

المبدأ العام للحرب النفسية مضاعف لانه يعتمد على تحقيق التطابق بين الجبهتين عند الذات والتضاد بينهما عند العدو ويكون ذلك مصدرا لهدفين متقابلين. فأما الهدف الأول فهو تمتين الوحدات الخمس التالية عند الذات: الزمانية (التاريخ) والمكانية (الجغرافيا) والسلمية (الرتب والفئات) والدورية الخاصة (الوصلات الرمزية بين المسارات المادية) والعامة (بين وحدة البشرية والتمييز المطلق). وأما الهدف الثاني فهو توهين تلك الوحدات عند العدو باحياء كل الكسور التاريخية والتقابلات الجغرافية والتناقضات الرتبية والوصلات الدورية الخاصة والعامة.

1ـ مسألة الزمان أو الاتصال المتوالي للوعي الجمعي: طبيعتها المضاعفة: منطق صراع الإرادات وقانون اقتصاده ودور تصور الذات والعدو فيهما.

2ـ مسألة المكان أو الاتصال المتساوق للوعي الجمعي: مجال فعلها: الجبهتان المباشرتان الجبهتان غير المباشرتين: مثال فريق الكرة ومشجعيه.

3ـ مسألة السلم أو الازدواج السلمي للوعي الجمعي: أهدافها المتضادة : تثبيط العدو وتثبيت الذات.

4ـ مسألة الدورة الخاصة أو التأليف بين السلسلتين الرمزية والمادية في عملية التحويل الدورية في الوعي الجمعي وفي الوجود الفعلي: أدواتها المضاعفة: العلم بالذات وبالعدو والعمل باثارة التأويلات المضلله بحسب عرضها.

5ـ مسألة الدورة الكونية أو الربط بالمتعاليات المطلقة للتغلب على المسائل الاربع السابقة في الوعي الكوني وفي الوجود المعموري: طرقها المضاعفة: التناسب الظرفي بين الكشف والحجب والعلم بحال الجبهتين النفسية وربطهما بالمتعاليات او بنظرية الوجود الدينية والفلسفية.

تلك هي الأسئلة المحيرة في هذه اللحظة التي صار فيها تمييز الصديق من العدو بيننا من أعصى الأمور على التبين الدقيق. فقد عز الصديق وبلغ بالمسلمين فهم معاني الاشياء وآفاقها أقصى درجات الضيق. والحمد لله فالتحليل العلمي يمكن أن يخلصنا من الدجل والتلفيق في مغالطة الجماهير ممن يطلبون التصفيق بدل التحقيق. لذلك حاولت تحديد مقومات الحرب النفسية من خلال دورها في الحرب عامة استنادا إلى نظريات ابن خلدون وتدبر القرآن الكريم علنا بذلك ندرك من يمارسها لصالح المعركة ومن بقصد أو بغير قصد يفسد علينا كل سبل النصر مستعيضا عن قيمها الإسلامية بما يعود إلى حمية الجاهلية بمعنييها جهلا وجهالة. والقصد أن نساعد أهل الحل والعقد في المعركة في تحديد ما يحتاجون إليه من فنيات الحرب النفسية المؤثرة مع إشارات نقدية لفكر أصحاب الـ«توب تن» الفاشل فضلا عن تناقضه مع روح الأخلاق الإسلامية في الحرب لكونه أقرب إلى أخلاق المرأة الجاهلة التي أكلت كبد حمزة ! ذلك اجتهادي فإن لم أصب فلي أجر الصدق في المحاولة والله أعلم.

* الجامعة العالمية الإسلامية